



نظرية " عدالة الصحابة " صنعها الأمويون للتغطية على جرائمهم (3 - 8)

بقلم : رائف محمد الويشي

20 أبريل 2014

تحدثنا في الحلقة الأولى عن نشوء نظرية عدالة الصحابة الأموية ، وذكرنا الآيات والأحاديث والأدلة العقلية التي ترد عليها ، كما ذكرنا تعريف الصحابة عند بعض العلماء المؤيدين لتلك النظرية الأموية حيث يعتبرونهم عدولا ..

في الحلقة الثانية ذكرنا صفات الصحابي عند المؤيدين لنظرية عدالة الصحابة وما أصدره من فرمان أموي بحق كل من لا يؤمن بها ، فهو زنديق وكافر ومنكر للقرآن والسنة !!

في الحلقة الثالثة اليوم سنعرض أدلة علماء نظرية " عدالة الصحابة " التي يحتجون بها بالقرآن والسنة النبوية ، ونختم الحلقة بعرض آراء من علماء السنة ترد على نظرية " عدالة الصحابة " الأموية ..

استدلال علماء القوم بالقرآن لإثبات عدالة الصحابة

يستدل علماء القوم المؤيدين لنظرية " عدالة الصحابة " بقولهم أن الله تعالى قد أيد عدالة الصحابة بآيات قرآنية ، فلنقرأ تلك الآيات :

1 - **يدرج ابن حجر العسقلاني** - توفي في عام 852 هـ - في الإصابة (ج 1 ص 22) ما قاله الخطيب البغدادي - توفي في عام 463 هـ - في الكفاية فيذكر الآيات التالية :

- منها قوله تعالى (آل عمران 110) : " كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر " ..
- وقوله تعالى (البقرة 143) : " وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا " ..
- وقوله تعالى (الفتح 18) : " لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم " ..
- وقوله تعالى (التوبة 100) : " السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه " ..
- وقوله تعالى (الأنفال 64) : " يا أيها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين " ..
- وقوله تعالى (الحشر 8 / 10) : " للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون ، والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ، والذين جاؤوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إن رءوف رحيم " ..

ثم يضيف الخطيب البغدادي - توفي في عام 463 هـ - في نفس المصدر السابق ، فيقول ما يلي :

" آيات كثيرة يطول ذكرها وأحاديث شهيرة يكثر تعدادها ، وجميع ذلك يقتضى القطع بعدلهم ، ولا يحتاج أحد منهم مع تعديل الله له إلى تعديل أحد من الخلق ، على أنه لو لم يرد من الله ورسوله شيء مما ذكرناه ، لأوجبت الحال التي كانوا عليها من الهجرة والجهاد ونصرة الإسلام وبذل المهج والأموال وقتل الآباء والأبناء والمناصحة في الدين وقوة الإيمان واليقين القطع على تعديلهم والاعتقاد على نزاهتهم ، وأنهم أفضل من جميع المخالفين بعدهم والمعدلين الذين يجيئون من بعدهم ، هذا مذهب كافة العلماء ومن يعتمد قوله " ..

2- **ويستدل ابن عبد البر** - توفي في عام 463 هـ - في المصدر المذكور (ج 1 ص 117) على عدالة الصحابة بالصورة التي ذكرها بالآية رقم 5 من سورة الفتح التالية:

" محمد والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا سيماهم في وجوههم من أثر

السجود " ..

يذكر الخطيب البغدادي وابن عبد البر آيات لا علاقة لها بما يزعمان أنها نزلت في أصحاب رسول الله ، ونضع الآيات التي ذكرها مع النقد عليها في الاستدلالات السبعة (ستة للخطيب وواحد لابن عبد البر) التالية :

1- في الاستدلال الأول للخطيب البغدادي : " كنتم خير أمة أخرجت للناس ... " ..

الآية تتعلق بأمة المسلمين عامة التي تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، لكن الخطيب يخصصها لغرض في نفسه ، ولو كان الأمر كذلك لرفع الله الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بزوال أصحابه !

* قال ابن كثير – توفي في عام 774 هـ - في تفسيره (آل عمران 110) ما يلي :
" الصحيح أن هذه الآية عامة في جميع الأمة " ..

* قال أحمد – توفي في عام 241 هـ - في مسنده (ج 6 ص 432) عن درة بنت أبي لهب ما يلي :
" قام رجل إلى النبي (ص) وهو على المنبر ، فقال : يا رسول الله ، أي الناس خير ؟ فقال النبي : خير الناس أقرأهم وأتقاهم وأمرهم بالمعروف وأنهاهم عن المنكر وأوصلهم للرحم " ..

2- في الاستدلال الثاني للخطيب البغدادي : " وكذلك جعلناكم أمة وسطا " ..

يتعلق الأمر أيضا بأمة الإسلام على العموم ، ولا توجد علامة للتخصيص بالآية لاعتبرها نزلت في الصحابة فقط ، بل هي عامة لكل المسلمين لمن يسير على هذا الطريق إلى يوم القيامة !

قال البخاري – توفي في عام 256 هـ - في صحيحه (ج 4 ص 105) عن أبي سعيد الخدري أن النبي قال (يجيء نوح وأمه ، فيقول الله تعالى هل بلغت ؟ ، فيقول : نعم أي ربي ، فيقول لأمته : هل بلغكم ؟ فيقولون : لا ، ما جاءنا من نبي ، فيقول لنوح : من يشهد لك ؟ ، فيقول : محمد وأمه ، فتشهد (أي أمة الإسلام) أنه قد بلغ " .. وهو قوله تعالى (الكلام للبخاري) : " وكذلك جعلناكم أمة وسطا " ..

3- في الاستدلال الثالث للخطيب البغدادي : " لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة

عليهم وأثابهم فتحا قريبا " ..

نضع تعليقا في عدة نقاط :

أولا : الآية تتحدث عن المتواجدين فقط تحت الشجرة وليس كما يزعمون عن كل الصحابة .. أنظروا إلى كلمة " إذ " التي تخص أصحاب الحدث فقط ..

ثانيا : الآية مرتبطة بالآية التي قبلها وما كان فيها من شروط : إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله ، فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجرا عظيما " ..

إذن كان شروط بيعة الرضوان (6 هـ) واضحة المعالم للجميع ، وهي المحافظة على العهود فمن يخترقها فإنما ينكث على نفسه ، ومن أوفى بتلك البنود يفوز بالرضا ، أحد تلك البنود هي ألا يفر الناس يوم الزحف ، فهل انطبق ذلك على الجميع يوم حنين في عام 8 هـ ؟! ماذا تضمنت البيعة من البنود والشروط على المؤمنين ؟

يقول مسلم – توفي في عام 261 هـ - في صحيحه (ج 6 ص 25) عن جابر بن عبد الله الأنصاري أنه قال :
" كنا يوم الحديبية 1400 رجلا فبايعناه ، وعمر أخذ بيده تحت الشجرة وهي سمرة (نوع الشجرة) وبايعناه على ألا نفر ، ولم نبايعه على الموت " ..

هل تم اختراق هذا الشرط بعد ذلك ؟!

يقول ابن أبي شيبة – توفي في عام 235 هـ - في مصنفه (ج 6 ص 417) عن الحكم بن عتيبة أنه قال :
" لما فر الناس عن النبي (ص) يوم حنين ، جعل النبي يقول : أنا النبي لا كذب أنا بن عبد المطلب ، فلم يبق معه إلا أربعة ، ثلاثة

من بن هاشم وواحد من غيرهم ، على بن أبي طالب والعباس وهما بين يديه ، وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب أخذ بالعنان ، وابن مسعود من جانبه الأيسر " ..

ثالثا : إذا كان الشرط الزماني للبيعة كي تنال الرضا هو عدم الفرار ، فلا شك أن هناك دائما شرطا أديا منطقيًا وهو الاستقامة ، فهل انطبق هذا الشرط الأيدي الخفي بين القوم !؟

طبعًا لم ينطبق ، لأن هناك بين الحاضرين في تلك البيعة من هو معلوم النفاق كعبد الله ابن أبي رأس المنافقين ، وهناك عبد الرحمن البلوي الذي قتل عثمان (راجع ابن عبد البر في الاستيعاب ج 2 ص 480) ، وهناك أبو الغادية الجهني الذي قتل عمار بن ياسر (راجع الذهبي في سير أعلام النبلاء ج 2 ص 544) ، بل كان أبو الغادية يفتخر بذلك ويلقب نفسه " قاتل عمار " (راجع ابن عبد البر في الاستيعاب ، والطبراني في التاريخ الأوسط ص 160) ، وهو يعلم أن النبي قال في عمار : " قاتل عمار وسالبه في النار " ، راجع الحاكم في المستدرک ج 3 ص 437..، وهناك المغيرة بن شعبة أحد المتأمرين الرئيسيين علي أهل البيت بصفة عامة والمشاركين في الهجوم علي بيت الزهراء بصفة خاصة ..

هناك أيضًا قيادات في الحاضرين بالبيعة سقطت في فخ الفتنة بمجرد وفاة النبي (ص) فنزعت النصوص ورمت بها عرض الجدار واستولت على الحكم وقتلت أهل البيت أو سرقت مال المسلمين وعذبت صحابة رسول الله ، وحتى من غير القيادات كان من بين الحاضرين أصحاب عاديون خرقتوا هذا الشرط الأيدي ،

كان أحد أصحاب رسول الله الذي تنبه لهذين الشرطين – أي المنصوص عليه في البيعة بعدم الفرار والخفي بحسن السير والسلوك الأيدي - هو البراء بن عازب ، وقد ذكرنا حديث في الحلقة الأولى :

قال البخاري في صحيح (ج 4 / 1529) عن العلاء بن المسيب عن أبيه أنه قال ما يلي :
" لقيت البراء بن عازب رضي الله عنهما ، فقلت له : طوبى لك صحبت النبي وبايعته تحت الشجرة ، فقال ، يا ابن أخي إنك لا تدري ماذا أحدثنا من بعده " ..

على أية حال يقول الزمخشري – توفي في عام 538 هـ - في تفسيره (ج 3 ص 543) ، وابن كثير – توفي في عام 774 هـ - في تفسيره (ج 4 ص 199) ، وغيرهما بخصوص هذه الآية إن رضوان الله وسكينته مشروطة بالوفاء وعدم نكث العهد ..

رابعًا : الترضى ليس مقصورًا فقط علي أصحاب بيعة الرضوان ممن انطبقت عليهم الشروط السابقة ، بل يشمل كل من ختم أعماله الدنيوية بالصلاح ..

قال تعالي في سورة المجادلة آية رقم 20: " لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها رضي الله عنهم ورضوا عنه أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون " ..

قال تعالي في سورة البينة آية رقم 7 / 8 : إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية ، جزاؤهم عند ربهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدًا رضي الله

(ملاحظة : نزلت آية خير البرية في علي وشيعته ، وتكثر أغلب كتب السنة المعتمدة بالروايات الدالة علي ذلك ، ونذكر منها ما يلي :

* **قال الطبري في تفسيره (ج 24 ص 542)** عن أبي الجارود ، عن محمد بن علي : أولئك هم خير البرية ، فقال النبي : " أنت يا علي وشيعتك " ..

* **قال ابن حجر الهيثمي في الصواعق المحرقة (ص 96)** عن ابن عباس أنه قال : " إن هذه الآية لما نزلت قال النبي لعلي : " ه و أنت وشيعتك تأتي أنت وشيعتك يوم القيامة ، راضين مرضيين ، ويأتي عدوك غضاباً مقمحين " ..

* **قال القندوزي الحنفي في ينابيع المودة (ج 2 ص 452)** عن ابن عباس أنه قال : " إن هذه الآية لما نزلت قال رسول الله لعلي : يا علي : أنت وشيعتك خير البرية ، تأتي يوم القيامة أنت وشيعتك راضين مرضيين ، ويأتي عدوك غضاباً مقمحين ، فقال : من عدوي ؟ قال : من تبرأ منك ولعنك " ..

* **قال السيوطي في الدر المنثور (ج 6 ص 379)** ، والشوكاني في تفسير فتح القدير (ج 1 ص 1644) ما يلي : " أخرج ابن عساکر ، عن جابر بن عبد الله ، قال : كنا عند النبي فأقبل علي ، فقال النبي : والذي نفسي بيده إن هذا وشيعته لهم الفائزون يوم القيامة ، ونزلت : إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية ، فكان أصحاب النبي : إذا أقبل علي قالوا : جاء خير البرية " ..

* **قال موفق الخوارزمي في المناقب (ص 111)** عن جابر بن عبد الله أنه قال : " كنا عند النبي وأقبل علي بن أبي طالب ، فقال رسول الله: قد أتاكم أخي ،

ثم التفت إلى الكعبة فضربها بيده ثم قال : والذي نفسي بيده أن هذا وشيعته هم الفائزون يوم القيامة ، ثم قال : إنه أولكم إيماناً معي وأولكم بعهد الله تعالى وأقومكم بأمر الله وأعدلكم في الرعية وأقسكم بالسوية وأعظمكم عند الله مزية قال : ونزلت فيه : إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية ، قال : فكان أصحاب النبي: إذا أقبل علي قالوا : قد جاء خير البرية " ..) ..

4- في الاستدلال الرابع للخطيب البغدادي : " والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار " ..

الآية ليس بها تعميم على كل المهاجرين والأنصار بل فقط على السابقين الأولين منهم ، وهي رغم ذلك لا تضمن لهؤلاء السابقين الأولين دخول الجنة مهما عملوا بعد ذلك ..

خذ مثلاً آيتي الكهف رقم 107 / 108: إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلاً خالدون فيها لا يبغون عنها حولا " ..

أو آيتي البينة 8 / 7 : " إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية جزأؤهم عند ربهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدون فيها أبداً رضي الله عنهم ورضوا عنه " ..

فلو أن هناك رجلاً فعل ذلك ثم قتل آخر بغير حق ، فهل تضمن له الآية دخول الجنة؟! لا تضمن ، إذن علينا أن نؤخذ الآية بشرطها العام الطبيعي والمنطقي ، وهو حسن الخاتمة..

قال ابن كثير – توفي في عام 774 هـ - في تفسيره لآية 25 من الأنفال : وانقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة (ج 2 ص 300) عن عون بن قتادة أنه قال ما يلي :

" حدثني الزبير بن العوام ، قال : لقد حذرنا رسول الله فتنة لم نر أنا نخلق لها ، ثم قرأ : " وَانقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً " ، فقرأنا زماناً ، فإذا نحن المعنيون بها ، قال : فحيث كان هذا فلم يخرجتم ؟ قال : ويحك ، نحن نعلم ، ولكن لا نصبر " ..

(ثلاث ملاحظات : الملاحظة الأولى : ما يدل علي أن الآية ليست بمثابة ضامن لكل السابقين الأولين هو ما حدث لعبيد الله بن جحش ، هذا الرجل كان من السابقين الأولين في الإسلام ، فقد كان متزوجاً من أم حبيبة بنت أبي سفيان وهاجر معها إلي الحبشة مع من هاجر بأوامر من النبي (ص) قبل الهجرة إلي المدينة ، إلا أنه تنصر هناك ومات علي نصرانيته ، وهذه قصة معروفة في كل كتب السيرة ونكرتها كل المذاهب ، راجع المستدرک ج 2 ص 21 ..

الملاحظة الثانية : الصحابة أنفسهم تعاملوا مع الآية المذكورة علي أنها لا تشمل كل السابقين الأولين ، وأدركوا أن السبق في الإسلام لا يعني الرخصة الأبدية لدخول الجنة ، فقد ورد أن أبا عبيدة بن الجراح قال للأنصار يوم السقيفة عندما حاولوا مبايعة زعيمهم سعد بن عبادة في سقيفته : " يا معشر الأنصار ، إنكم كنتم أول من نصر ، فلا تكونوا أول من غير وبدل " ، راجع الطبري في تاريخ الأمم والملوك ج 2 ص 243 ، واليعقوبي في تاريخه ج 2 ص 123 ..

الملاحظة الثالثة : حكمة الله في التبليغ وإقامة الحجج علي الناس تتنافي مع ما يزعمه البعض بالأخذ بظاهر الآية ، وهو التعميم لكل السابقين الأولين ، إنها – مع افتراض وجهة نظرهم – تعتبر دعوة مجانية مغرية لارتكاب المعاصي طالما ضمنوا الجنة ..

وكيف يستقيم ما يزعمون مع التحذير الإلهي لصاحب الرسالة (ص) نفسه بأنه لا ضمان له ولغيره من الأنبياء في سورة الزمر آية 65 : " ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين " .. وكذلك في سورة الإسراء آية 74 / 75 : " ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئا قليلاً ، إذا لأذقنك ضعف الحياة وضعف الممات ثم لا تجد علينا نصيراً " ..) ..

5- في الاستدلال الخامس للخطيب البغدادي : " يا أيها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين " ..

الكلمات تنطق عن نفسها وتحدث عن النصر وليس العدالة ، وهم الخاصة الذين اتبعوا النبي (ص) من المؤمنين الذين عرفوه ، فمن هم هؤلاء ؟ هم أولئك الذين حافظوا علي سيرته ورسالاته ، وليس الذين خالفوه وأداروا ظهورهم للنصوص الواضحة حتى نهاية حياتهم ، وأفعال الفتنين التي تفصل بين الصالح والطالح سنذكر بعضاً منها في الحلقات القادمة ..

6- في الاستدلال السادس للخطيب البغدادي : " للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا إن رءوف رحيم " ..

الآية تتحدث عن ثلاثة أنواع من أتباع النبي : عن المهاجرين (الذين أخرجوا من ديارهم) ، والأنصار (الذين تبؤوا الدار) ، والذين جاؤوا من بعدهم (أي أسلموا بعد النوعين الأولين) ..

تتحدث الآية عن خاصة القوم ممن صحب رسول الله (ص) وليس عامتهم ، وقد حدد الله تعالى صفات معينة تنطبق علي المهاجرين والأنصار .. فالصفات الخاصة بالمهاجرين هي : فقيراً أخرج (أكره) من دياره وأمواله – يكون ذلك ابتغاء الله – ينصرون الله ورسوله .. والصفات الخاصة بالأنصار هي : يحبون من هاجر إليهم – يقدمون ما في أيديهم للآخرين – يؤثرون علي أنفسهم ..

7- في الاستدلال السابع لابن عبد البر : " محمد والذين معه أشداء على الكفار"

لا يُحتج بالآية في باب " عدالة الصحابة " كما يزعم ابن عبد ربه ، بل تتضمن صفات واضحة لهؤلاء الذين صحبوا النبي (ص) ومن تنطبق عليه تلك الصفات ، سيدخل بالبشرى التي تتضمنها الآية (مغفرة وأجرا عظيما) ، وهذه الصفات هي بالنقاط التالية :
* **الصفة الأولى :** أن يكونوا أشداء على الكفار ، فهل شهد علمائنا أن الخلفاء الثلاثة كانوا كذلك؟! فليذكروا لنا واحدا قتلوه من الكفار الكبيرة التي كانوا فيها ضمن الفارين !

* **الصفة الثانية :** أن يكونوا رحماء بينهم ، فهل كان الهجوم على بيت الزهراء ، وضرب عثمان لأصحاب رسول الله (ص) المقربين ونفيهم ، وقتال علي في الجمل وصفين والنهروان ، وقتل معاوية لأصحاب رسول الله من الرحمة؟!
* **الصفة الثالثة :** أن يكون ركعا سجدا ، هل كان الزاني المغيرة بن شعبه (صديق عمر) ، وشارب الخمر الوليد بن عقبة (ابن عم عثمان) وسمره ابن جندب بائع الخمر الذي قتل ثمانية آلاف مسلم كذلك؟!
* **الصفة الرابعة :** أن يبتغوا وجه الله تعالى ، وليس كقرمان الذي ذكرنا قصته في الحلقة الرابعة مع مثيله في خيبر وقال فيهما النبي (ص) أنهما في النار ..

* **الصفة الخامسة :** سيماهم في وجوههم من أثر السجود ..

* **الصفة السادسة :** الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم ، وكلمة " منهم " تبين أنها تصفية وغرلة ممن انطبقت عليه الصفات الخمسة السابقة ، أي التخصيص وليس التعميم ، أي تعنى الاستدامة في العمل الصالح حتى نهاية العمر ..

استدلالات أخرى يحاولون بها إثبات نظريتهم :

1- **سورة التوبة آية رقم 117 :** " لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة .. إنه كان بهم رؤوف رحيم "

ونضع النقاط الخمس التالية للرد على حججهم في آية التوبة :

* النقطة الأولى :

الآية تتحدث عن توبة ، ويعنى ذلك أنها جاءت بعد خطأ ما وقع ، وواضح الآية أن بعض المسلمين خافوا منازل الروم لقوتهم فأنزل الله هذه الآية لإخبارهم بالتوبة عليهم ، وجاءت غزوة تبوك بعد ذلك مباشرة مع الروم ..

* النقطة الثانية :

علماء نظرية " عدالة الصحابة " الأموية يقولون أن النبي مشمول أيضا بالتوبة ، وهذا يعنى - على حد زعمهم - أنه قد وقع منه خطأ أيضا ، لأنه عفا عن المتخلفين ، ويشيرون بذلك إلى الآية رقم 43 من نفس السورة : " عفا الله عنك لما أذنت لهم حتى يتبين لك " .. أما تفسير علماء أهل البيت فهو يرفع النبي (ص) من الخطأ المذكور لأن العصمة محصنة ضد الأخطاء ، ويحمل تفسيريين :
1- أن النبي كان سببا لتوبتهم ، كأن الآية تقول : لقد تاب الله بالنبي على المهاجرين والأنصار ..
2- " عفا الله عنك لم أذنت لهم " لم تكن نتيجة خطأ منه بل جاء من باب " إياك أعنى واسمعي يا جارة " أي يكون الكلام لك بينما الهدف هو إخبار المتقاعسين ، والدليل على ذلك أن الله هو الذي أجلسهم لنزع التشريف عنهم بمصاحبة النبي (ص) إلى تبوك : " ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة ولكن كره الله إنباعهم فثبطهم وقيل أقعدوا مع القاعدين " ..

إذن الآية (لقد تاب الله على النبي ...) تعنى التالي :

" حدث الخطأ المتمثل بالتقاعس ، وحرّمهم الله بتأكيد تقاعسهم لحرمانهم من شرف المصاحبة للنبي ، ثم جاءت توبتهم بشفاعة من تواجد شخصية النبي (ص) بينهم " ..

أي أن ظاهر الآية يؤكد وقوع أخطاء من جانب المهاجرين والأنصار ولا يؤكد عدالتهم ، والآية 38 في نفس السورة تؤكد ذلك : " يا أيها الذين آمنوا مالكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله إناقلتم إلى الأرض أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل إلا تنفروا يعذبكم عذابا أليما ويستبدل قوما غيركم ولا تضره شيئا والله على كل شيء قدير " ..

* النقطة الثالثة :

التوبة هنا توبة خاصة ، تخص ما حدث من تقاعس من أشخاص معينة ، ولا تعنى – كما يحاول دائما علماء النظرية – التوبة الأبدية لكل ما يصدر من أخطاء ، سواء كان من فعل ذلك أم غيره من أصحاب رسول الله ..

إذا ارتكب ابنك خطأ ما ثم اعتذر ، فهل تعطيه توبة لما صدر منه فقط لتعليمه أم تعطيه توبة أبدية لتشجيعه على المزيد من الأخطاء؟! إذا أخطأت وأعطيته توبة أبدية ، فهل تعطى أبناءك الآخرين معه توبة أبدية لكل ما يفعلوه مستقبلا ، وهم في الأصل لم يكونوا طرفا في المشكلة التي صنعها أخوهم؟! إذا فعلت فكأنك تشجعه وتشجعهم على المعاصي!
كل الآباء على اختلاف لونهم ولغتهم ودينهم وثقافتهم وبيئتهم وأماكنهم - سواء في أدغال الأمازون أو في قلب المدن - يعطون التوبة لأبنائهم طبقا لما صدر من الشخص الذي ارتكبها ، والتوبة ليست أبدية له كي يفعل ما يشاء ، ولا تخص الآخرين من الأبناء ، ومن يقول غير ذلك يشك في عقله!

وعلى أية حال ، فإن روايات أهل البيت تقول أن الآيات المذكورات التي تخص المتقاعسين كانت في ثلاثة من أصحاب النبي هم : أبو ذر – أبو خيثمة – عمر بن وهب ، ولم يكن تخلفهم تخلفا بالمعنى الظاهر ، بل تقاعسا وكسلا ، لكنهم تحركوا متأخرين ..

وهؤلاء غير الثلاثة الذين خُلفوا في سورة التوبة 118: "وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت " ، فهؤلاء لم يلحقوا بالنبي واقعا ، بل لزموا بيوتهم بأعدار غير حقيقية وهم : كعب بن مالك ، ومرارة بن الربيع ، وهلال بن أمية ..

* النقطة الرابعة :

لو نظرنا إلى أية الذين خلفوا (التوبة 118) ، فما هو متوافر في مصادر أهل السنة يقول أنهم كانوا كثيرين من " الصحابة " مع الثلاثة الذين خلفوا ، ومنهم مؤمنون ، فهل يعنى ذلك أيضا أنهم يدخلون الجنة بغير حساب ، كما يدعى الخطيب البغدادي وغيره؟!

قال أبو حيان الأندلسي – توفى في عام 745 هـ - في تفسيره (ج 5 ص 43) للآية ما يلي :
" لما أمر الله رسوله بغزوة تبوك وكان زمان جذب وحر شديد وقد طابت الثمار ، عظم ذلك على الناس وأحبوا المقام ، نزلت عتابا على من تخلف عن هذه الغزوة ، كانت سنة تسعة من الهجرة بعد الفتح بعام ، غزا فيها الروم في عشرين ألفا من ركب وراجل ، وتخلف عنه قبائل من الناس ، ورجال من المؤمنين كثير ومنافقون ، وخص الثلاثة بالعتاب الشديد بحسب مكانهم من الصحبة " ..

قال ابن حجر العسقلاني – توفى في عام 852 هـ - في فتح الباري (ج 8 ص 113) عن الآية ما يلي :
" إن الذين تخلفوا كانوا بضعة وثمانين رجلا " .. طبعا هو لم يقصد المنافقين ، بل ذكر فقط المؤمنين ..

قال النووي – توفى في عام 767 هـ - في تفسيره للآية ما يلي :
" إن من تخلف عشر قبائل " ..

* النقطة الخامسة :

كيف لكم أن تستدلوا بعدالة أصحاب رسول الله (ص) كافة بآيات من سورة تسمى " الفاضحة " أي تلك التي فضحت المتقاعسين والمتخلفين والمنافقين؟!

قال البخاري – توفى في عام 256 هـ - في صحيحه (ج 6 ص 85) عن سعيد بن جبير أنه قال ما يلي :
" قلت لابن عباس : سورة التوبة ، قال : هي الفاضحة ما زالت تنزل : ومنهم ومنهم حتى ظنونا أنه لم تُبق أحدا منهم إلا ذكر فيها " ..

2- يزعمون أن النبي (ص) قال ما يلي :

- " أصحابي كالنجوم ، بأيهم اقتديتم اهتديتم " ..
 هذا الحديث ضعفه علماء أهل السنة ، ومن هؤلاء ما يلي :
 - أحمد بن حنبل صاحب المسند في كتاب المنتخب لابن قدامة (ج 10 ص 199)
 - ابن حزم في الأحكام (ج 5 ص 61) ..
 - الشوكاني في القول المفيد (ج 1 ص 29) ..
 - البزار في تلخيص الحبير (ج 4 ص 191) ..
 - ابن تيمية في منهاج السنة (ج 8 ص 364) ..
 - الذهبي في المنتقى من منهاج الاعتدال (ج 1 ص 551) ..
 - الألباني في سلسلة الأحاديث : ج 1 ص 144 ..

3- قال البخاري في صحيحه (ج 3 ص 151) أن النبي (ص) قال ما يلي :

" خير الناس قرني ، ثم الذين يلوونهم ، ثم الذين يلوونهم ، ثم يجيء أقوام تسبق شهادة أحدهم يمينه ، ويمينه شهادته " ..

هم يزعمون أن النبي (ص) قال أن خير الناس كانوا في قرنه ، وبالتالي فإنهم سيكونون أعدلهم أيضاً ، وهؤلاء — كما يزعمون — هم أصحابه بالتأكيد ..

إذا كان الأمر يتعلق بخاصة أصحاب النبي (ص) ، فالأمر في محله ، فأين هو الجيل الذي يأتي بأبي ذر وعمار والمقداد وعمار وسعد ابن عباد وعثمان ابن مظعون؟!

أما إذا كان الأمر يتعلق بالتعميم على كافة الصحابة (وهذا هو ما يهدف إليه أصحاب النظرية) فالأمر بحاجة لتذكرتهم بأن أكبر الجرائم في التاريخ الإسلامي قد وقعت في هذا الجيل ، وفي مقدمتها قتل أهل البيت النبوي ، وهم أفضل الخلائق بعد الأنبياء ..

على أية حال فإننا نجد أن الأحاديث النبوية الإحدى عشر التي ذكرناها بالحلقة الأولى تؤكد على أن المتقين من غير جيل الصحابة سيتفوقون على الصحابة أنفسهم ، وقد سمى النبي (ص) هؤلاء " إخواني " ، وهذه — كما سبق وقلنا — مرتبة أعلى من مرتبة " أصحابي " ..

4- ذكر مسلم — توفي في عام 261 هـ - في صحيحه (ج 4 ص 194) عن عبيد الله ابن أبي رافع أنه قال ما يلي :
 " سمعت علياً وهو يقول : بعثنا رسول الله أنا والزبير والمقداد ، فقال : انتوا روضة خاخ ، فإن بها طعينة معها كتاب ، فخذوه منها ، فانطلقنا... فأتينا به رسول الله ، فإذا فيه من حاطب بن أبي بلتعة إلى ناس من المشركين من أهل مكة يخبرهم ببعض أمر رسول الله ، فقال رسول الله : يا حاطب ما هذا ؟ قال : لا تعجل علي يا رسول الله ، إني كنت إمراً ملصقاً في قريش... وكان ممن كان معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون بها أهليهم ، فأحببت - إذ فاتني ذلك من النسب فيهم - أن أتخذ فيهم يداً يحمون بها قرابتي ، ولم أفعله كفراً ، ولا ارتداداً عن ديني ، ولا رضا بالكفر بعد الإسلام ، فقال النبي : " صدق " ، فقال عمر : دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق ، فقال: إنه قد شهد بدرأ ، وما يدريك؟ لعل الله اطلع على أهل بدر ، فقال : اعملوا ما شئتم ، فقد غفرت لكم ، فأنزل الله عز وجل " يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق " ..

ويوجد بعض الملاحظات على الحديث المذكور :

- 1- النبي صرح بصدق حاطب في سلامة دينه وأنكر (ص) ما قاله عمر في رمي حاطب بالنفاق ورغبته في قتله رغم التصريح النبوي بصدقه..
- 2- النبي (ص) كان يعبر عن رجاء في قوله " لعل الله " ، والدليل على ذلك أنه قد أقام الحد علي مسطح ابن أثاثه في قضية الإفك ، وهو بدرى (جلد مع حسان بن ثابت وحمنة بن جحش في تلك القضية) .. راجع الطبري في تاريخ الأمم والملوك (ج 2 ص 114) ، تفسير القرطبي (ج 12 ص 201) ، السنن الكبرى للبيهقي (ج 8 ص 250) ، فتح الباري لابن حجر العسقلاني (ج 13 ص 342)
- 3- عمر نفسه كان يعرف أن قول النبي " لعل الله " لم يخرج عن كونه رجاء ، والدليل على ذلك أنه (أى عمر) أقام الحد علي قدامة

بن مضعون لما شرب الخمر في البحرين ، وهو بدري أيضا .. راجع الحاكم في المستدرک (ج 3 ص 426) ، تفسير القرطبي (ج 6 ص 297) ..

4- كانت هناك رغبة نبوية سريعة بهذا الرجاء لكبح جماح عمر الذي يهوي كلمة " دعني أضرب عنقه " في كل صغيرة وكبيرة وهو بجوار النبي ، رغم أنه لما كانت تدور الحروب كان يهرب كالنعجة الجبلية ..

(ملاحظة : ذكرنا في الحلقة الخامسة من هذه الدراسة نماذج عديدة من الكتب المعتبرة في المذهب السني تبين أن عمر – ومعه صديقه أبو بكر - كان سريع الفرار من المعارك النبوية) ..

آراء من علماء السنة ترد على نظرية " عدالة الصحابة " الأموية :

1- يقول أبو حامد الغزالي – توفي في عام 505 هـ - في سر العالمين عن عدالة الصحابة ما يلي :

" أسفرت الحجة وجهها ، وأجمع الجماهير على متن الحديث من خطبته (ص) في يوم غدیر خم باتفاق الجميع وهو يقول: من كنت مولاه فعلي مولاه ، فقال عمر: بخ بخ لك يا أبا الحسن! لقد أصبحت مولاي ومولى كل مؤمن و مؤمنة! هذا تسليم ورضي وتحكيم ، ثم بعد هذا غلب الهوى لحب الرئاسة ، وحمل عمود الخلافة وعقود البنود وخفان الهواء في قعقة الرايات واشتباك ازدحام الخيول وفتح الأمصار ، سقاهم كأس الهوى فعادوا إلى الخلاف الأول " فنذوه وراء ظهرهم واشتروا به ثمناً قليلاً فبئس ما يشترون " .. آل عمران 187 .. ولما مات رسول الله (ص) قال قبل وفاته: إيتوني بدواة وبياض لأزيل عنكم إشكال الأمر وأذكر لكم من المستحق لها بعدي! قال عمر : دعوا الرجل فإنه ليهجر!! وقيل بهذ .. فإذا بطل تعلقكم بتأويل النصوص أيضا ، فإن العباس وأولاده وعليها وزوجته وأولاده لم يحضروا حلقة البيعة وخالفكم أصحاب السقيفة في مبايعة الخزرجي ثم خالفهم الأنصار " ..

(ملاحظتان : الملاحظة الأولى : ولد الغزالي النيسابوري في عام 450 هـ ، وكان أحد أعلام عصره ، وكان شافعيًا أشعريًا ، ولم يكن له نظير له في عصره ، لقبه العلماء بحجة الإسلام ، واستحق منهم أيضا ألقابا أخرى مثل : زين الدين ، ومحجة الدين ، والعالم الأوحى ، ومفتي الأمة ، وبركة الأنام ، وإمام أئمة الدين ، وشرف الأئمة

الملاحظة الثانية : شكك بعض العلماء في أن يكون سر العالمين قد كتبه أبو حامد الغزالي ، لكن الفقرة التي ذكرنا والمنقولة عن كتابه المذكور نقلها أيضا سبط الجوزي – توفي في عام 597 هـ - في تذكرة خواص الأمة ص 36 ، فلزم التنويه !) ..

2- يقول التفتازاني – توفي في عام 793 هـ - في شرح المقاصد (ج 5 ص 310) عن عدالة الصحابة ما يلي :

" ما وقع بين الصحابة من المحاربات والمشاجرات على الوجه المسطور في كتب التواريخ ، والمذكور على السنة الثقات ، يدل بظاهره على أن بعضهم قد حاد عن طريق الحق ، وبلغ حد الظلم والفسق ، وكان الباعث عليه الحقد والعناد ، والحسد واللداد ، وطلب الملك والرياسات والميل إلى اللذات والشهوات ، إذ ليس كل صحابي معصوماً ، ولا كل من لقي النبي (ص) بالخير موسوماً ، إلا أن العلماء لحسن ظنهم بأصحاب رسول الله (ص) ذكروا لها محامل وتأويلات بها تليق ، وذهبوا إلى أنهم محفوظون عما يوجب التضليل والتفسيق ، صوناً لعقائد المسلمين من الزيغ والضلالة في حق كبار الصحابة ، سيما المهاجرين منهم والأنصار ، المبشرين بالثواب في دار القرار ..

وأما ما جرى بعدهم من الظلم على أهل بيت النبي (ص) ، فمن الظهور بحيث لا مجال للإخفاء ، ومن الشناعة بحيث لا اشتباه على الآراء ، ويكاد تشهد به الجماد والعجماء ، ويبيكي له من في الأرض والسماء ، وتنهض منه الجبال ، وتنشق منه الصخور ، ويبقى سوء عمله على كر الشهور وممر الدهور ، فلعنة الله على من باشر ، أو رضي ، أو سعي ، ولعذاب الآخرة أشد وأبقى ..

فإن قيل: فمن علماء المذهب من لا يجوز اللعن على يزيد ، مع علمهم بأنه يستحق ما يربو على ذلك ويزيد .. قلنا: تحامياً على أن يرتقى إلى الأعلى فالأعلى ، كما هو شعار الروافض ، على ما يروى في أدعيتهم ، ويجري في أنديتهم ، فرأى المعتنون بأمر الدين إجماع العوام بالكلية ، طريقاً إلى الاقتصاد في الإعتقاد ، بحيث لا تنزل الأقدام عن السواء ، ولا تضل الأفهام بالأهواء !! وإلا فمن خفي عليه الجواز والاستحقاق ، وكيف لا يقع عليهما الاتفاق؟! وهذا هو السر فيما نقل عن السلف من المبالغة في مجانبة أهل الضلال ، وسد طريق لا يؤمن أن يجر إلى الغواية في المال ، مع علمهم بحقيقة الحال وجليه المقال " ..

(ملاحظتان : الملاحظة الأولى : جاء في معجم المطبوعات العربية (ج 1 ص 635) عن التفتازاني الترجمة التالية:

التفتازاني ، سعد الدين (722-793هـ -) مسعود بن عمر بن عبد الله سعد الدين التفتازاني الهروي الشافعي الخراساني التفتازاني ، نسبة إلى تفتازان ، بلدة بخراسان ولد فيها ، كان من محاسن الزمان ، لم تر العيون مثله في الأعلام والأعيان ، وهو الأستاذ على الإطلاق ، والمشار إليه بالاتفاق ، اشتهرت تصانيفه في الأرض وأنت بالطول والعرض " ..

الملاحظة الثانية : يعد التفتازاني أحد العلماء المشهورين بمذهب أهل السنة ، وكتبه تعتبر مرجعا لكثير من علماء المذهب ، فلا يدعى أحد أنه رافضي !) ..

3- يرد العلامة شهاب الدين الألوسي - توفي في 1854 م - على كل هؤلاء الذين ذكرناهم من أصحاب نظرية " عدالة الصحابة " والدائرين في فلكهم ، فيقول في تفسيره روح المعاني (ج 14 ص 117) في ذيل الآية 30 من سورة محمد ما يلي :
" وذكروا من علامات النفاق بغض علي كرم الله وجهه ، فقد أخرج ابن مردويه : " عن ابن مسعود : ما كنا نعرف المنافقين على عهد رسول الله إلا ببغضهم على بن أبي طالب " .. وأخرج هو ابن عساکر عن أبي سعيد الخدري ما يؤيده هذا المعنى ، وعندني (أي عند العلامة الألوسي) أن بغضه رضي الله تعالى عنه من أقوى علامات النفاق ، فإن أمنت بذلك فياليت شعري ... ، ماذا تقول في يزيد الطريد ؟! ، أكان يحب عليا كرم الله تعالى وجهه ، أم كان يبغضه ؟! ، ولا أظنك في مرية من أنه عليه اللعنة كان يبغضه رضي الله تعالى عنه أشد البغض ، وكان يبغض ولديه الحسن والحسين على جدهما وأبويهما الصلاة والسلام ، كما تدل على ذلك الآثار المتواترة معنى ، وحينئذ لا مجال لك من القول بأن اللعين كان منافقا " ..

(ملاحظة : ولد العلامة الألوسي في عام 1803 م في العراق ، كان عالما معروفا ومفسرا وشاعرا ، تقلد الإفتاء في مدينته ، له مؤلفات عديدة أشهرها روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ، توفي في عام 1854 م) ..

4- قال الإمام المازري ما يلي :

" لسنا نعني بقولنا الصحابة عدول كل من رآه النبي يوماً أو زاره لمأماً ، أو اجتمع به لغرض وانصرف عن كُتُب ، وإنما نعني به الذين لازموه وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه ، أولئك هم المفلحون " ..

(ملاحظتان : الملاحظة الأولى : الإمام المازري هو أبو عبد الله محمد بن علي بن عمر بن محمد التميمي المازري ، ولد في 453 هـ في صقلية ، عاش يتيماً وفقيراً ، كان عالماً فقيهاً وتحدث عن علمه ابن خلكان في وفيات الأعيان ، توفي المازري في عام 536 هـ ، ومن أشهر تلاميذه القاضي عياض ..
الملاحظة الثانية : قول الإمام المازري ذكره ابن حجر العسقلاني في الإصابة في تمييز الصحابة ص 19) ..

5- قال ابن حزم الأندلسي - توفي في هـ 456 - في الأحكام في أصول الأحكام (ج 6 ص 90) في عدالة الصحابة ما يلي :
" وإذا كان رسول الله ﷺ يخبر أن أصحابه قد يخطئون في فتياتهم ، فكيف يسوغ لمسلم يؤمن بالله واليوم الآخر أن يقول إنه صلى الله عليه وسلم يأمر بإتباعهم فيما قد خطأهم فيه ؟ وكيف يأمر بالاعتداء بهم في أقوال قد نهاهم عن القول بها ، وكيف يوجب إتباع من يخطئ ؟ ولا ينسب مثل هذا إلى النبي ﷺ إلا فاسق أو جاهل ، لا بد من إلحاق إحدى الصفتين به ، وفي هذا هدم الديانة ، وإيجاب إتباع الباطل ، وتحريم الشيء وتحليله في وقت واحد ، وهذا خارج عن المعقول وكذب على النبي صلى الله عليه وسلم ومن كذب عليه ولج في النار ، نعوذ بالله من ذلك . وأما قولهم : إن الصحابة رضي الله عنهم شهدوا الوحي فهم أعلم به ، فإنه يلزمهم على هذا أن التابعين شهدوا الصحابة فهم أعلم بهم ، فيجب تقليد التابعين ، وهكذا قرنا بقرنا ، حتى يبلغ الأمر إلينا فيجب تقليدنا ، وهذه صفة دين النصاري في إتباعهم أسأفتهم ، وليست صفة ديننا والحمد لله رب العالمين " ..

(ملاحظة : هو علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي المعروف لابن حزم الأندلسي ، يعد أكبر علماء الأندلس والثاني ترتيباً في التاريخ الإسلامي تأليفاً بعد الطبري ، ولد في عام 384 هـ) ..

6- يقول العلامة عبد الرحمن المعلمي اليماني في الاستبصار في نقد الأخبار (ص 26) في شأن عدالة الصحابة ما يلي :
" وأما الأنصار فالتناء عليهم عام ، قد كان من الأوس والخزرج منافقون لكنهم قليل ، ولم يحضر من المنافقين أحد بيعة العقبة ، ولا شهد بدرا ولا أحداً فإن كبيرهم اعتزل بهم ، والظاهر أنه لم يبايع تحت الشجرة أحد منهم ، وقد قيل إنه كان هناك أحد منهم فلم يبايع وقد سمي ، وقول الله عز وجل في ذكر تخلفهم عن غزوة تبوك : " ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم وقيل اقعدوا مع القاعد * لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالاً ولأوضاعوا خلالكم ييغونك الفتنة وفيكم سماعون لهم والله عليم بالظالمين " ، يقتضي أنه لم يشهد تبوك أحد منهم ، ولكن روي أن اثني عشر منهم اعترضوا النبي صلى الله عليه وآله وسلم مرجعه من تبوك وأرادوا ترديته من العقبة " ..

(ملاحظة : ولد العلامة المعلمى في عام 1895 هـ في بيت من العلم ، وحفظ القرآن في طفولته ، وعمل أميناً لمكتبة الحرم المكي ، توفى داخل الحرم المكي في عام 1966 هـ) ..

يقول العلامة محمد أبو زهرة في تاريخ المذاهب الإسلامية (ص 102) في شأن نظرية عدالة الصحابة المزعومة ما يلي :
" والحق أنّ قول الصحابي ليس بحجة ، فإنّ الله سبحانه لم يبعث إلى هذه الأمة إلاّ نبيّنا محمّداً ، وليس لنا إلاّ رسول واحد ، والصحابة من بعده مكلفون على السواء بإتباع شرعه في الكتاب والسنة ، فمن قال بأنّه تقوم الحجّة في دين الله لغيرهما فقد قال في دين الله ما لا يثبت ، وأثبت شرعاً ما لم يأمر الله به " ..

(ملاحظة : ولد العلامة أبو زهرة في مدينة المحلة الكبرى بمحافظة الغربية في عام 1898م ، عمل أستاذاً لقسم الشريعة بكلية الحقوق وعضواً بمجمع البحوث الإسلامية ، توفى في عام 1974 م) ..

في الحلقة القادمة إن شاء الله سواصل الحديث عن نظرية " عدالة الصحابة " الأموية ، فإلي لقاء ..

رائف محمد الويشي

سانت لويس - ميزوري - أمريكا

elwisheer@yahoo.com

تابع مقالات سابقة لكاتب المقال على مدونته " ثوار مصر " وعنوانها كما يلي :

www.thowarmisr.com